هشاشة الوضع الراهن والإقرار باللّاعصمة الإنسان

بول ريكور
ترجمة: زهير الخويلدي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2021
All rights reserved © 2021

هشاشة الوضع الراهن والإقرار بلاّعصمة الإنسان[1]

بول ريكور

ترجمة: **د. زهير الخويلدي**

1- **المصدر:**

Paul Ricœur, *Autrement. Lecture d'autrement qu'être ou au-delà de l'essence d'Emmanuel Levinas*, édition PUF, Paris, 1997

«إذا كانت معاناة الآخرين يمكن أن تؤثر عَلَيَّ، فإن إجابتي لن تكون المعاناة، بل الاهتمام بالآخرين»[1]

يعاني الإنسان المعاصر من الهشاشة في الكثير من المجالات؛ ففكره ضعيف ومعرفته بأحواله وبالعالم المحيط به منقوصة ومشوشة وعلاقته بغيره متوترة ويشوبها الخلاف وسوء الفهم الذي يتحول إلى سوء تفاهم وحضوره في المدينة صار محتشما؛ ولذلك يفضل الاختلاء بنفسه، ويكتفي بالمشاركة الافتراضية.

لقد برزت هذه الهشاشة بشكل ملحوظ زمن الجائحة، حيث وقف الكل في حالة عجز وشلل تام وحجر كلي، وأصبح الهدف الأول للجميع تفادي الاعتلال والنجاة بالنفس من كل خطر وتوفير الحد الدنى من حفظ الكيان والشعور بالخوف من المجهول والتعويل على المؤسسات العمومية في الوقاية والمعالجة للوباء. في هذا السياق، يمكن الاستنجاد بالفلسفة التأويلية التي فكرت في الشأن الإنساني في مختلف تحولاته، ويجوز استدعاء الفلاسفة لكي يفكروا معنا في الدواعي والأسباب التي جعلت الحشود تعاني من الهلع الجماعي.

والحق أن بول ريكور (1905-2005) قد وصف مؤثرية البؤس، وأجرى حوارا مع العلوم الإنسانية حول مظاهر الهشاشة والعطوبية، واهتم بموقف الوجودية المسيحية واللاهوت البروتستانتي والفكر التأملي. كما استنطق أيضا مفاهيم المعنى والذاتية والوظيفة الاستكشافية للخيال والرمز في الأسطورة والتاريخ والدين.

لقد ربط بول ريكور فكره التأويلي باستعارة «الإنسان غير المعصوم». بهذا أراد، في الوقت نفسه، فهم معنى الذات الإنسية في رحلتها الوجودية الخاصة بها، وسعى إلى تقديم مساهمته المنهجية في فلسفة الكائن. لقد تفطن إلى الحاجة إلى «زرع» الهرمينوطيقا في الفنومينولوجيا، عندما تثبت من المنهج الوصفي، الذي يركز على الذاتية المتعالية، وتبين له أنه غير كاف لتفسير ظاهرة ارتكاب الإنسان للخطأ والذنب ضحية المغالطة ووقوعه في الوهم وإنتاجه للكذب ومعاناته التاريخية من «زيف الوعي والوعي، باعتباره زيفا». لقد رفع ريكور هذا الاكتشاف الأنطولوجي إلى مرتبة الأسلوب من خلال إظهاره من وجهة نظر التحليل النفسي، ثم تطبيقه على موضوعات الاستعارة والسرد، ويبين أن الفنومينولوجيا الهرمينوطيقية قادرة على تجديد عميق لمسألة المعنى والتأويل. يقترح هذه المبحث، في البداية، اختبار خصوبة هذه «الكسب غير المشروع» لنظرية التأويل في وصف الظواهر؛ بيد أن موقع ريكور المميز في كل من علم التأويل المعاصر وفي مجال الفنومينولوجيا يبرر التشكيك، دون أي تحيز، في شروط الاحتمالات، والمخاطر والمحدودية المحتملة لهذا التقارب بين الاختصاصين. سيكون هناك فرصة أولى لمقارنة منهج ريكور بهوسرل وهيدجر

1 Paul Ricœur, *Autrement. Lecture d'autrement qu'être ou au-delà de l'essence d'Emmanuel Levinas*, édition PUF, Paris, 1997, p64

(بالنسبة للفنومينولوجيا) والبحث في صلته بشلايرماخر وغادامير (بالنسبة للهرمينوطيقا). في المرة الثانية، يرغب هذا البحث في استكشاف ما ينتمي إلى فنومينولوجيا بول ريكور، بعيدًا عن الصورة السكونية المرتبطة بهذا المؤلف في الكثير من الدراسات التاريخية الفلسفية، ستكون المسألة هي تسليط الضوء على أسباب النزاعات المستمرة، حتى في إطار عمله، بين الطريقتين المعاصرتين. بعد ذلك، يتناول ريكور مفاهيم اللغة، الزمان، الذات، الآخر والاعتراف والعلاقة بينها: كل هذه الظواهر التي أراد ريكور وصفها من خلال التركيز على نظرية التأويل، تحاول الهروب من فتنة النص وتتجه نحو عالم الممارسة والحقل الاجتماعي، وتختبر نفسها في إطار مملكة الحق والرجاء. إن قاعدة «فهم المزيد لوصف أفضل» يمكن أن تكون قاعدة الذهبية يلتزم بها دوما في مواجهة رمزية الشر.

تحاور الأنثربولوجيا الفلسفية عند بول ريكور مختلف المعارف التي توفرها العلوم الإنسانية، وتستفيد من علم الاجتماع والألسنية والإثنولوجيا وعلم النفس والديموغرافيا وعلم الأديان وتاريخ المعتقدات والعلوم الثقافية وعلم الآثار. كما تطرح الإشكال الفلسفي حول الشروط التي ينتقل بها الكائن البشري من الإنسان الخطأ إلى الإنسان القادر على النحو التالي: إذا كانت الطبيعة البشرية تتسم بالإرادة الطيبة والفطرة السليمة، فما تأويل وقوع الإنسان في الزلل؟ هل بسبب الخطيئة الأصلية كما ذكر الوحي أم الشر الجذري، مثلما اشتغل عليه كانط في كتابه الدين في حدود العقل المجرد؟ من أين يأتي الشر إلى العالم إذن؟ لماذا الإنسان العامي لا يقدر على تفادي الوقوع في الخطأ؟ ما القدرات التي تمنحها له التربية والثقافة والسياسة والعلم والتقنية والفن والإيتيقا؟ ما المقصود باللاّعصمة من وجهة نظر أنثربولوجية فلسفية؟ وما الفرق بين الإنسان المذنب والإنسان المخطئ؟ وإذا كانت العصمة من صفات الأنبياء كما ذكرت الأديان ورديفة للكمال الإلهي، فهل هذا يعني أن الإنسان يظل سجين تناهيه ومحدوديته المعرفية وهشاشته الأنطولوجية؟

تهتم الأنثربولوجيا الفلسفية بمكونات الوضع البشري من جهة مستويات الحياة التي يعيشها، ومن جهة ثانية أحوال الوجود وشروط تحقيق الكينونة وتعالج المشاكل النفسية والاجتماعية التي تعيق تحقيق إنسانية الإنسان. علاوة على ذلك، تحاول الأنثربولوجيا الفلسفية فك شفرة الرموز الأسطورية التي تفسر وقوع الإنسان في الخطيئة بعيدا عن أحكام الأخلاق، وتستخدم الهرمينوطيقا في تأويل النص الديني الذي يذكر قصة السقوط من عالم القداسة إلى عالم الدنس، وتبحث في البؤس المثير للشفقة الذي يداهم الكائن في وجوده اليومي. على هذا الأساس، يراهن بول ريكور على إمكانية تخلص الإنسان من الإثم والتغلب على اللاإرادي والانتصار على الشر والتوقي من العذاب، وتجنب الألم عن طريق تقوية الإرادي والتسلح بالأمل من طرف الذات التاريخية والاقتدار على الحياة الجيدة مع الآخرين في المدينة من خلال الفعل السياسي والوجود في العالم المشترك. بطبيعة الحال، تستهدف الأنثربولوجيا الفلسفية تقديم بعض الكشوفات حول السؤال الشائك:

من هو الإنسان؟ وتصف الذات في تحركها حول عدد من الدوائر هي الكلام والفعل والسرد والوعد والالتزام والاعتراف. لكن أنى للكائن البشري أن يتصالح مع ذاته، وهو يعيش اللاّتناسب بين طبع مزاجه المتقلب وأفق سعادته المؤجلة؟ أليس هو الكائن الذي يتعذب بقدر ما يفعل، ويتخاصم بقدر ما يتواصل، ويخطئ بقدر ما يجرب؟ ماهي الطرائق العلاجية التي تدل عليها الأنثربولوجيا الفلسفية، لكي يتمكن الإنسان من التعافي من تكرار أخطائه تجاه نفسه وغيره وعالمه وتسديد أفعاله نحو الصلاح؟

والحق أن الأطروحة الرئيسة هنا، تتمثل في أن جمهورية الفلسفة بحاجة إلى التعافي من معركتها التاريخية مع زيف اللاهوت. إنها حاجة ملحة بشكل خاص بعد تشريح العولمة بالفكر التفكيكي وما بعد الحديث. على الرغم من الموافقة على استثمار الكثير من رأس المال الرمزي في الموضوع الميتافيزيقي، وفي الموضوع المعرفي للحداثة العلمية والتقنية، فإن الموقف الذي يريد بول ريكور الدفاع عنه هو أن تفكيك الأسس الميتافيزيقية والإبستيمولوجية التقليدية للذاتية يؤدي إلى رفض جذري للذات المعصومة. من ناحية أخرى، يتجادل ريكور مع دريدا وليفيناس حول إعادة تشكيل الذات، ويقر بأن تفكيك الميتافيزيقيا والمعرفة التقليدية يوفر فرصة لاستكشاف مساحة جديدة من الذاتية تظل فيها حقول الفعل والاقتدار سليمة.

من بين المعاناة المتعددة للروح التي يجب على الإنسان مواجهتها بجدية، يحتل الشعور بالذنب مكانًا مميزًا للأسف، لا يزال محجوبًا من المحرمات التي لا يمكن إنكارها. إن معالجة موضوع الذنب يعني أيضًا مقابلة زملائك المسافرين الآخرين، مثل: العار والخطيئة والخطأ والنفاق وبالطبع الكذب، دون نسيان احترام الذات الذي يجعل الناس غير سعداء للغاية ... إن الإثم والبراءة ليس عنوانًا استفزازيًا بشكل مجاني. إن أصالة هذا الكتاب هي مراقبة هذا الشر البالغ من العمر ألف عام من منظور مختلف. هل هذا الشعور سلبي حصريًا (كما يعتقد الكثير من الناس)؟ أم إنه، على العكس، حصن منيع ضد اللامبالاة والازدراء؟ أليس تخطي العطوبية والهشاشة يعد خطوة ضرورية للوصول إلى تحمل المسؤولية؟

في الوقت الذي يبدو فيه أن العنف المحيط ينشأ من الشعور بالذنب، فقد حان الوقت لأن هذا الموضوع لم يعد يثير الفكر، ولكن صار المرء يقترب منه دون خوف. ربما تسمح معرفة مصادره وعواقبه للشعور بالذنب، ليصبح حليفاً ولم يعد منفذاً: إنه يفتح قلوبنا للمسؤولية بدلاً من إنتاج العصاب والآثار الجانبية.

بهذا المعنى، يبقى بول ريكور فيلسوف الحكمة العملية بامتياز، هذه الفضيلة القديمة واليونانية التي كان يعرف كيف يجددها، والتي كان يعرفه شروط تكيفها مع ظروف الحياة اليومية وفي ذلك نراه يصرح: «كتابي في الإيتيقا موجه بشكل أساسي نحو فكرة الحكمة العملية؛ أي القرار في المواقف الفردية. إنها الرحلة كلها من القاعدة إلى القرار الفردي، من خلال المداولات الفردية. أعطي أمثلة على ما أسميه «مأساة الفعل»»،

حيث آخذ على محمل الجد حقيقة أن الصراع هو بُعد غير قابل للاختزال للفعل البشري». بالنسبة إلى أولئك الذين هم في صميم الفعل ومهمة التشكيل، يمكن أن تثبت الفلسفة التي يقترحها بول ريكور (دون فرضها) أنها أداة ثمينة: فهي توفر إطارًا منهجيًا (المثلث الإيتيقي الذي يحدد مفهوم الحسن، علاقته بالأخلاق والحق والسياسة والحياة والدين والفن)، وعناصر الاستجابة المتعمقة، والشعور بالمسؤولية. إنها ليست فلسفة التخلي أو الهروب إلى الأمام، إنها تريد حكمة عملية؛ أي أن تكون منارة، مرجعية للذات الفاعلة التي تعيش في زمن اللايقين والاضطراب وتحتاج إلى ثقافة مرنة وأسلوب سلس وسلمي. علاوة على ذلك، يحاول هذا العمل إعادة التفكير في الإيتيقا الريكورية من خلال التذكير بأهمية «استهداف الحياة الجيدة، مع الآخرين ومن أجلهم، في مؤسسات عادلة»: بهذه الصيغة المختصرة إلى حد ما، قدم ريكور «إيتيقاه الصغيرة». بدءًا من تحليل مقال بعنوان الإيتيقا والأخلاق، تتم الإشارة، في هذا العمل، إلى خصوصية ثلاث لحظات مختلفة يمثلها كانط وليفيناس وأرسطو، ولكنها مترابطة بشكل وثيق. وهكذا يبدو أن اللحظة الأولى هي تلك التي تهم تقدير الذات، والثانية هي التي تهم الآخرين، والأخيرة لحظة العدالة في التعامل مع اللآخرين التي تجعل من الممكن العيش في المجتمع ضمن علاقات تعاونية ودية. باستخدام هذه اللحظات الثلاث، يقوم ريكور بالتمييز بين «الإيتيقا الأساسية» النابعة من الرغبة في أن يعيش حياة كاملة تحت علامة الإجراءات التي تعتبر جيدة، من معايير «الأخلاق الإلزامية» التي تهدف إلى إنشاء شعور بالالتزام. هذا التمييز، بعيدًا عن كونه نظريًا فقط، يسمح لريكور أن يقدم، في المرة الأخيرة، حكمة عملية حقيقية للإنسان الذي يتصرف في عالمنا الراهن المليء بالعنف والكذب والنزاع. هكذا يظهر ريكور في كتبه ومؤلفاته وحواراته ونصوصه كرجل حوار وانفتاح يسعى إلى مواجهة فكره ليس فقط مع المؤلفين العظماء للتقليد الفلسفي (بشكل أساسي هنا أرسطو وكانط)، ولكن أيضًا مع المفكرين الحاليين الذين كانوا معاصريه له مثل ليفيناس أو أرندت أو رولز أو تايلور أوفاليزار. في هذا الحوار المستمر، تمكن ريكور بالتالي من تطوير مفهوم أصلي للإيتيقا كان مثمرًا بشكل خاص، خاصة في مستوى تقدير الذات والرعاية الموجهة نحو الغير، ويراهن على دور المؤسسات في غرس العدالة. بالنسبة إلى بول ريكور، فإن الأبعاد الأخلاقية الأساسية الثلاثة للشخص هي «اقتدار القول» و«اقتدار الفعل» و«القدرة على الجمع بين حياة المرء في قصة مفهومة ومقبولة»، وهو مفهوم سيستأنفه بموجب الهوية السردية. في مقاله «الاستقلالية والعطوبية»، يستخدم ريكور كلمة «الهشاشة»، عندما يتحدث عن أنواع العطوبية: «الاستقلالية هي كائن هش وضعيف». ويصر بشكل خاص على عدم القدرة اللغوية في عملية الضعف: «أولاً يتحدث أن إتقاننا للكلام يبدو مهددًا ودائمًا ما يقتصر على الفوري، ويكشف لنا عن وجود تفاوت الأساسي بين البشر فيما يتعلق بإتقان الكلام، وهو عدم مساواة أقل بكثير من التفاوت الطبيعي، ويشير إلى التأثير الضار للثقافة على الملكات ويفسر العطوبية بالعجز في المجال اللغوي. لهذا يتحقق تكافؤ في الفرص بالمساواة في القدرة على الكلام والقدرة على القول والشرح والجدل والنقاش والوعد.

والحق أن الوضع الراهن يظل هشّا، وأن الكائن البشري يعاني من العطوبية ويتجلى ذلك في وقوعه في زلات اللسان وتعمده الكذب على نفسه، وعلى الغير بمجرد أن يشرع في الكلام، وكذلك عجزه عن التغيير واتصاف فعله بالعطالة وبروز ردود أفعال عنيفة عندما يريد بلوغ السلوك القويم، وكثيرا ما يتنصل من وعوده ويتخلى عن التزاماته، ويعجز عن القيام بواجباته تجاه مجتمعه، على الرغم من تمتعه بكامل حقوقه. فماذا يعمل لكي يتمكن من التدارك والإنقاذ ويخرج من دائرة السيلان ويكتسب على قدر من الصلابة؟ ومن يتحمل مسؤولية الكوراث التي يرتكبها الانسان الخطاء؟ وكيف يحمي نفسه في وضع العطوبية؟

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021